ذكرى ميلاد

عنـــــد الثلاثين

للأستاذ محمد سعيد العريان

لشدّ ما أعياني السُّرَى !

منذ تسعٍ وعشرين أُصَعِّد في الجبل وما بلغْت . أترانى الى القمّة أدبّ دبيبي ، أم قد جاوزتُها وما أدرى ، فأنا منحدرٌ أتدلّف من جانبها الى بطن الوادى .. ؟

يكتنفني الغيبُ فما أعرف أين يومي من أمسه ومن غدِه . أما أمس فقد خلعْتُه عني ، وطَوَتْه الأيامُ طيَّ مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلْقاناً مركومة كالليت لفَّتْه أكفانُه . وهل الماضى إلا الجزءُ الذى مات منا ؟

وأما الغد . . . فمن لى بما هناك ؟ إن الأحلام لتكذب ، فما أحسبها كانت تتراءى لى إلا من دنيا غيرِ دنياىَ ليس من أيامها يومى ولا غدى

هـــذه الأيام تَصْعَى على مَدْرجة الزمن ، وما تزال التى تصطرع فى رأسى !

يا لى من الأيام ! لشدّ ما كانت تسخر منّي إذ تمدّ لى أسبابَ المنى ، حتى إذا همتُ لم تكن عثراتى إلا أيامى !

إ نقشى أيتها الغيوم واكشفى لى عما وراءك ؛ إن لى أمنيةً هناك !

* * *

إنى لأرانى كأنما لَبِسَنى النوم ، فأنا من الرؤيا فى دنيا غير التى أعرف ، وناسٍ غيرِ هذا الناس ، وتَمَّت طفلٌ يعدو خلْف قَراشة ، أتراه مُدْرِكَها ؟

لقد آبَ فارغَ اليد ، ولكن على شفتيه ابتسامة !

وأقبل يتعرّفنى وما كانت به الىّ من حاجة

قال : « من أنت ؟ »

قلت : « أما تعرفنى ؟ »

قال : « نعم ، فمن تكون ؟ »

قلت : « فانظرْ فى مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب . »

ونَظَر ونَظَرْتُ من خلفه ، فما كان فى المرآة إلا وجهُ الطفل الضاحك

ولوى رأسه وعاد ينظر الىّ ويقول :

— «لستَ هناك ، وما أُرانى أعرفك ولا تعرفك مرآتى»

ورَفَّت القَراشة فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه !

يا طفولتى التى فرّتْ بأسعدِ أيام الحياة ، ليتكِ كنتِ تعرفين !

* * *

وعاد الطفل فتًى يخطر ريّانَ الوجه مُشرقَ الجبين ، فازْوَرّ إذ رآنى على الطريق

قلت : « أتنكرنى يا فتى ؟ فانى صاحبك ! »

قال : « متى ؟ فما أظننى عرفتُك ! »

قلت : « ذاك يومَ التقينا على السفْح والشمسُ ضاحية ، وتصاوير الزّهر ترفّ من أجنحة القَراشة »

وابتسم الفتى ومرّ بيمناه على جبينه وهو يقول :

— لعلّى أذكر من بَعدُ ! »

وانطلق يغنّى جذلان

يا نضارةَ الصِّبَى وبُكْرةَ الشباب ، ليتكِ إذْ تولّيت عابثةً ناعمةً بالحرّية — كنت تَدْرِين مَن هناك !

* * *

وأقبل من بعدُ شابٌّ يبتسم . ما أشبهه بصاحبه !

قلت : « ها أنت ذاك ، أما تعرفنى ؟ »

قال : « كأنى رأيتكَ من قبل ، بربّك مَن تكون ؟ »

قلت : « فانك ماتزال تنكرنى على ما صحبتُك زماناً ولما ينقض عهد طويل ! »

ولم أجدْ جوابى ؛ فقد لوى الشابُّ رأسه يتابع بعينيه فتاةً تخطر ، ثم انطلق مُهْطِعاً وراءها ونفسى تتبعه

يا لله ! لكأنها هى . . . !

* * *

وتلاشى الوجودُ من أمامى فلم أُعدْ أرى غير وجه ضاحكٍ ، وطلعةٍ مشرقة ، وعينين تُشِعّان النور من وجه الفتاة

ورأيتها تدنو منى وفى وجهها كلام ...

قلت : أما تزالين تذكرين يا فتاة ؟ يا للنفس العطوف ! »

قالت : أنتَهْ لأنت ؟ لله صَبْرُك ! »

وانقضّتْ كلماتُها على صدرى بالهم والوحشة والعذاب ، وكأنما اجتمع منها تاريخُ سبعِ سنين طوال ، ما يزال فى القلب منهنّ جراحٌ تنزف !

وانثالت الذكرياتُ على نفسى تتمثّل من مشاهدها قِصّة

غرام ثائر ، أعفّفها منشئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية

ورحت أنكت الأرض بالعصا ، كأني أفتش تحت التراب عن الجزء الذي مات من قلبي ! ورأيت ظلها على الأرض ، فاستحييت أن أرفع رأسي وفي عيني دموع !

يالشباب من حبّ بلا رجاء ! أوضيّع أنضرَ أيام الحياة مصبوباً على نفسي ، أبحث عن أهون ما في الحياة ؟

وأين الرجولة إن بذلت شبابي وتفسي لأعدو في ظلّ فتاة؟ أتراها تجيدُ فقدي ؟

إن المرأة للرجل إنْ هي إلا وَحيُ المجد ومطلعُ الأمل ، فاذا عادت لهفةً ودموعا فما هي امرأة ، ولكنها اليأس والحرمان والخيبة !

وتذكّرتُ صاحبي الذي انفلتَ مني مُهطِعاً إلى فتاته ، فاذا هو أمامي والفتاة الى جانبه ذراعاً إلى ذراع

قال : « ما تقول لنفسك ؟ »

قلت : أو تسمع همس النفس ونجوى الضمير ؟ »

قال : « قد علمتُ بعضَ هذه النجوى . . . أفكنت تتحدث بما تتحدث إلى نفسك ، لو لم تكن هذه الشعراتُ البيض تخفى وتلوح في فوديك ؟ »

قلت : « أوَ تراها ؟ . . . فاسألْ صاحبتك عن خبرها ؛ فهل جاءكَ أن هذا الشيب الباكر يدلّ إلا على شباب القلب ؟ ما أحسبك تعلمُ حتى تُنبيكَ الشعرةُ البيضاء ! »

واستضحك الفتى والفتاة ... !

***

وتلاشى الوجود ثانية من أمامي ! وإذا أنا في دنيا غير دنياي ، وناسٍ غير هذا الناس ؛ وإذا المرآة أمامي تجلو لي ما تجلو (الخيالة) ، وكأنما اجتمع بها في زمانٍ ومكان تاريخي كلّه على الأرض منذ تسعٍ وعشرين بماضيه وحاضره ، وران ضبابُ أنفاسي على ثلث المرآة

وإذا فيما ظهر لي من المرآة طفلٌ يعدو خلف فراشة ، ماينفك يقفز ويثب

وغلامٌ يخطر مغنياً جذلان ، ما يعنيه إلا الكرةُ يرتق فتوقها ، والفتيات من الصبيان يتجاذب وإياهم أسبابَ المسرّة في الحارة وعلى ناصية الطريق

وشابٌ باسم الثغر منبسط الأسارير دُنياهُ هذه الفتاة ، له منها في النهار مشغلة وفي الليل مشغلة

ثم ... ثم هذا الوجه الذي يعرفه صحابتي ، على شفتيه ابتسامة عابسة ، وفي عينيه سرٌ يبالغ في الاستخفاء ، ومن وراء جبينه أمانيٌ تصطرع ، ودنيا يموج بعضها في بعض

ليت شعري أهذه هي الحياة ، أليس فيها أحسنُ مما رأيت ، أهذا كل ما هنالك ؟

ياضيعة المنى إن كان الغد يوماً مكرّراً مما فات !

أين المَثَلُ الأعلى الذي جهدت في تخيله ، وأعياني الكدّ في البلوغ اليه ؟ أترى البشرية الضالّة قد حطّمت تمثاله ، وخرّبت هيكله ، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد ؟

محمد سعيد العريان

يتيمة الدهر

فرغت المكتبة الحسينية المصرية بشارع الشهد الحسيني تليفون ٤٣١٣٨ من طبع الجزء الرابع من كتاب يتيمة الدهر وثمنه خمسون غرشاً صاغا

وهي تباشر الآن طبع كتاب

النقائض

بين جرير والفرزدق

لأبي عُبيدة معمر بن المثنى التيمي

وثمن الجزء الأول منه في الاشتراك عشرة غروش صاغ